



كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

College of Sharia & Islamic Studies

مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

Journal of College of Sharia & Islamic Studies

نصف سنوية – علمية محكمة

Academic Refereed – Semi-Annual

ISSN 5545 – 2305

المجلد ٣٤ – العدد ٢ – خريف ١٤٣٨ هـ / ٢٠١٦ م

Vol. 34– No.2, 2016 A / 1438 H

"أسباب إعراض المشركين عن اتباع المرسلين في القرآن الكريم"

تأليف

د. شافي بن سلطان العجمي

أستاذ بكلية الشريعة – جامعة الكويت

ملخص:

أسباب إعراض المشركين عن اتباع المرسلين إما أسباب تعود لعدم إيمانهم بالألوهية أو النبوة أو المعاد. الأسباب المتعلقة بتوحيد الله هي الجهل بالله، والعلم الفاسد، وتقليد الآباء. الأسباب المتعلقة بالنبوة هي عدم مجيء الآيات الحسية، وكون الأنبياء بشرا، واتباع الفقراء للحق، والخوف من ذهاب المكانة والرئاسة والمال، واتباع الهوى. الأسباب المتعلقة بالمعاد تعود لاستبعاد الإعادة والمطالبة بإحياء آبائهم.

Abstract:

The reasons for the idolaters's failure to follow the senders either for reasons of lack of faith in divinity or prophecy or recycled .The reasons for the unification of God is ignorance of God, and corrupt science, and the tradition of the fathers . The reasons for the prophecy is not the coming of the sensual verses, and the fact that human beings of the prophets, and to follow the poor to the right, and the fear of going stature and the presidency, money, and capriciousness .

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وبعد:

فقد قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾^(١).

والهدى هو العلم النافع ودين الحق هو العمل الصالح^(٢)، وكثيرا ما يقرن الله بينهما في كتابه للدلالة على عدم انفكاكهما. وتسميه الحق الذي بعث الله به نبيه هدى للدلالة على حسنه ودلالته على الطريق إلى الله ورشده في ذاته وقوة هدايته وظهورها وكمالها، وهذا كله بعض ما تضمنه تعريف الهدى في الآية، ومع كمال الدلائل البينة على الحق واتباعه إلا أن الله صرف بحكمته بعض عباده عن ذلك. والقرآن مملوء ببيان مقتضيات اتباع الحق، ليكون الناس على بينة من أمرهم ولئلا يكون للناس على الله حجة، ولولا ما قدر الله من أسباب تبعث على إعراض الخلق عن الحق لاتبعه الناس، ولكن الله يضل من يشاء بحكمته وعدله. وقد تعثرت في هذا الزمن سبل اقتناع الناس لاتباع الحق لأسباب وموانع كثيرة، ونحن بحاجة ماسة لتحذير الناس من هذه الأسباب المعاصرة لمشابقتها للأسباب التي منعت المشركين من اتباع المرسلين.

ولم يجد الباحث بحثا أو رسالة تبرز أسباب إعراض المشركين عن اتباع المرسلين، وتبين منهج القرآن في كل ذلك. وقد تطرق أحد الباحثين لموضوع الصوارف عن الحق^(٣)، وتناول عددا جيدا منها إلا أن الفرق بين الباحثين من وجهين:

(١) سورة الفتح: ٢٨.

(٢) تفسير ابن كثير (٧/٣٦٠).

(٣) الصوارف عن الحق للدكتور حمد العثمان وهو كتاب منشور.

الأول من حيث المضمون: ولم يشر بحث الدكتور حمد لمنهج القرآن في بيان أسباب إعراض المشركين عن اتباع المرسلين، ولم يبين أسباب إعراض المشركين عن الإيمان بالنبوة وبالمعاد ككون الأنبياء بشرا وعدم مجيء الآيات الحسية واتباع الفقراء للحق واستبعاد البعث بعد الموت، وعدم احياء الآباء، وأما بحثنا فقد قسم أسباب إعراض المشركين عن اتباع المرسلين ثلاثة أقسام قسم الألوهية والنبوة والمعاد.

الوجه الثاني: من حيث الشكل، فبحث الدكتور حمد تكثر فيه النقول عن أهل العلم، وليس فيه إشارة لمنهج القرآن، وهذا البحث خالص في بيان منهج القرآن في كل سبب أدى لإعراض المشركين عن اتباع المرسلين.

وقد اشترك بحثي وبحث الدكتور حمد في بعض العناوين مثل الجهل وتقليد الآباء دون الاشتراك في مضامين هذين العنوانين، ولا يخفى أن الحديث عن موضوع واحد يقتضي التشابه في بعض العناوين، ولكن العبرة في منهج البحث ومضامين كل عنوان. وفي الجملة فالقدر المشترك بين البحثين لا يتجاوز سطورا يسيرة تمثلت في تشابه ثلاثة عناوين. وسيكون بحثنا في مقدمة وقد مضت وتمهيد في بيان منهج القرآن في بيان أسباب إعراض المشركين عن اتباع المرسلين وثلاثة مباحث: المبحث الأول: أسباب إعراض المشركين عن الإيمان بالألوهية، المبحث الثاني: أسباب إعراض المشركين عن الإيمان بالنبوة والمبحث الثالث: أسباب إعراض المشركين عن الإيمان بالمعاد، وخاتمة.

التمهيد

في الصيغ القرآنية المبينة لأسباب إعراض المشركين عن اتباع المرسلين

كانت الألفاظ القرآنية المبينة لأسباب إعراض المشركين عن اتباع المرسلين على طريقتين:

الأول: ذكر انصراف المشركين عن الحق

والقرآن يبين أن المشركين يجادلون بالباطل ليدحضوا الحق ظلماً وعلواً وذلك لانصراف قلوبهم عن الحق، ولو كانوا ييغون الحق لسألوا ولم يجادلوا، ولكن القلب المصروف عن الحق يستر باطله بجداله ليوهم أنه على حق، ويشترك المنافقون في هذا الأمر مع المشركين، ولذلك ذكر المشركين في موطن كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنِّي يُصْرَفُونَ﴾^(٤)، وذكر المنافقين في موطن آخر كقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(٥)، وفي الموطن الثالث ذكر الله سبب انصراف الناس عن الحق وهو الكبر ليشمل ذلك انصراف المشركين والمنافقين فقال عز شأنه: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعِزِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾^(٦).

(٤) سورة غافر: ٦٩.

(٥) سورة التوبة: ١٢٧.

(٦) سورة الأعراف: ١٤٦.

والطريق الثاني: ذكر لفظ الإعراض عن الحق

فتارة يبين إعراضهم عن الآيات المسموعة: كقوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾^(٧). وتارة عن الآيات المشهودة، كقوله: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾^(٨)، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْهًُا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾^(٩). وتارة يبين إعراضهم عن اليوم الآخر، كقوله: ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾^(١٠)، ووقوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ. أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾^(١١)، وقوله: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾^(١٢)، وتارة يبين إعراضهم عن العلم بالحق، كقوله: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾^(١٣).

^(٧) سورة الأنفال: ٢٣.

^(٨) سورة يوسف: ١٠٥.

^(٩) سورة الأنبياء: ٣٢.

^(١٠) سورة الأنبياء: ١.

^(١١) سورة ص: ٦٧، ٦٨.

^(١٢) سورة الأحقاف: ٣.

^(١٣) سورة الأنبياء: ٢٤.

المبحث الأول

أسباب إعراض المشركين عن الإيمان بالألوهية

المطلب الأول: الجهل بالله وصفاته وأفعاله، القرآن مملوء ببيان صفات الله وأفعاله، وماذا يجب وماذا يكره، وذلك أن أصل شرك المشركين كان من الجهل بالله، ولذلك نجد التعريف بالله وصفاته في السور المكية أكثر من ذكره في السور المدنية، كما قد افتتحت سور كثيرة ببيان صفات الله وحسن فعله وضرورة حمده وشكره، كما في الفاتحة والأنعام ويونس والرعد والنحل والكهف والفرقان وغيرها. ونجد أن القرآن ينص على أن المشركين لم تكن عبادتهم للأصنام بعلم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾^(١٤) وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾^(١٥)، وكان تحريمهم للسامية بغير علم، وقتلهم أولادهم بغير علم، وجعلهم الملائكة بنات الله بغير علم، ونسبتهم الأصنام لله بغير علم، وهكذا يسير أهل الشرك في بحر الظلمات ظانين أنهم على علم وليسوا عليه. وهكذا يكون حال من أعرض عن الحق، فلن يكون إعراضه بعلم، بل هو مبصر في نفسه أنه على ضلالة، كقوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

(١٤) سورة النجم: ٢٣.

(١٥) سورة الأنعام: ١٠٠.

الْمُفْسِدِينَ ﴿١٦﴾. والقرآن يقيم المحجة ويسوق المحجة لئلا يكون للناس حجة، ولا يقوم لهم عذر، فيبين صفات الله وأفعاله، ليعرفه الخلق فيحبه، ويعبدونه.

المطلب الثاني: العلم الفاسد، الجهل إما أن يكون بسيطا أو مركبا^(١٧)، والجهل البسيط يعني عدم العلم، والجهل المركب يعني اعتقاد المعلوم على غير ما هو عليه، فهو جاهل من وجه وعلمه فاسد من وجه لاشتراكهما في عدم العلم، ونفي العلم عن العلم الفاسد كنفي الصلاة عن الصلاة الفاسدة، كما في حديث المسيء صلاته، فقد قال له رسول الله عليه وسلم: ارجع فصل فإنك لم تصل^(١٨)، وفي صحيح البخاري عن زيد بن وهب، قال: رأى حذيفة رجلا لا يتم الركوع والسجود، قال: «ما صليت ولو مت مت على غير الفطرة التي فطر الله محمدا صلى الله عليه وسلم عليها»^(١٩). وقد جاء ذكر العلم الفاسد في القرآن على وجهين، الأول: العلم بالحق وترك العمل به وهذا مسلك اليهود وهم المغضوب عليهم، وهذا شبيه بطريقة عاد وثمود التي بينها الله تعالى بقوله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَزَيْنِّهِمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾^(٢٠)، فقد كانوا عالمين بالحق معرضين عنه.

(١٦) سورة النمل: ١٤.

(١٧) البحر المحيط للزركشي (١/١٠٠).

(١٨) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، في الحضر والسفر، وما يجهر فيها وما يخافت، رقم الحديث ٧٥٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب اقرأ ما تيسر معك من القرآن، رقم الحديث ٣٩٧.

(١٩) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب إذا لم يتم الركوع، رقم الحديث ٧٩١.

(٢٠) سورة العنكبوت: ٣٨.

الثاني: العلم بما يصاد الحق والعمل بغير الحق وهذا مسلك النصارى وهم الضالون، وهذا شبيه بطريقة أهل سبأ التي بينها الله بقوله: ﴿وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَبَّنَّ هُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾^(٢١). أهل الكتاب والمشركون انصرفوا عن الحق باتباعهم العلم الفاسد، فأما اليهود فقد ذكروهم الله كثيرا، كقوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢٢). وقوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَبِكُفْرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢٣). وقوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢٤). وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾^(٢٥). وقوله جل شأنه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٢٦).

(٢١) سورة النمل: ٢٤.

(٢٢) سورة البقرة: ٨٠.

(٢٣) سورة البقرة: ٩١.

(٢٤) سورة البقرة: ١١١.

(٢٥) سورة المائدة: ١٨.

(٢٦) سورة التوبة: ٣٠/٣١.

وفي الآيات السابغات نجد أن إعراض اليهود والنصارى عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم كانت في دعواهم أن النار لن تمسهم إلا قليلا، وأنهم أولياء الله وأن ما عندهم من الكتاب هو الحق، وقد أبطل الله كل ذلك وفنده في كتابه في مواضع كثيرة، وأما المشركون ففي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾^(٢٧)، وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾^(٢٨). وفي هذين الموضوعين بيان أن اتباع الظن والمغالطة في القدر من أسباب إعراض المشركين عن الحق ليصدوا أنفسهم ويصدوا غيرهم عن الحق، والمقصود باتباع الظن أي الظن الكاذب وهو توهم نفع الأصنام ودفع الضرر بها، وأما المغالطة بالقدر فهي زعمهم بأن مشيئة الله اقتضت عبادتهم للأصنام وليس لهم من الأمر شيء، وقد بينت الآيات أن الظن لا يعني من الحق شيئا وأن القدر لا يحتج به أحد على دنياه فكيف يحتج به على دينه.

المطلب الثالث: تقليد الآباء، وهذا السبب من أكثر الأسباب انتشارا وتأثيرا بين الناس في القديم والحديث، فهذا إبراهيم وقومه يقول الله عنهم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ هَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا هَا عَابِدِينَ﴾^(٢٩)، وفي قصة موسى عليه السلام يقول الله سبحانه: ﴿قَالَ مُوسَى لَأَتَقُولُونَ لِحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ

(٢٧) سورة يونس: ٣٦.

(٢٨) سورة النحل: ٣٥.

(٢٩) سورة الأنبياء: ٥٣/٥١.

السَّاحِرُونَ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي
الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٠﴾.

ووجه أنفة الإنسان عن ترك دين آباءه أنه ابن بيئته، وهو مدني بطبعه، متأثر
بأقرب الناس إليه، ومنهم يأخذ دينه وديناه، ونشأة الإنسان صغيراً على عادات أهله
تحول بينه وبين مخالفة تلك العادات، وقد احتج الكفار على أنبيائهم بآبائهم، كقوله
تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْ كَانَ
آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا
يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٣١﴾.

ووجه انصرافهم عن الحق اتباعاً لآبائهم أن ذلك يقتضي تسفيه أحلام آبائهم
وسبهم وشتمهم، والعرب تأنف من ذلك وتعير الرجل بذلك وتبذل جاهها ومالها في
سبيل آباءها، فكيف يتركون دينهم ويطعنون فيه، وماذا ستقول العرب عن أهل مكة
لو فعلوا ذلك. وأحياناً يذكر الكفار عدة أسباب تصدهم عن الحق في موضع واحد
كقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا
إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ فقد تضمنت هذه الآية ثلاثة أسباب تصدهم عن
الحق الأول استبعاد توحيد الله والثاني مخالفة دين الآباء والثالث المطالبة بالوعيد
والعذاب. وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أِنِّي لِلَّهِ شَاكِرٌ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ

(٣٠) سورة يونس: ٧٧/٧٨.

(٣١) سورة البقرة: ١٧٠/١٧١.

(٣٢) سورة الأعراف: ٧٠.

مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٣﴾ فقد تضمنت الآية عدة أسباب تصدهم عن الحق، منها كون الأنبياء بشرا ومخالفة دين الآباء والمطالبة بالآيات الحسية.

المبحث الثاني

أسباب إعراض المشركين عن الإيمان بالنبوة

المطلب الأول: عدم مجيء الآيات الحسية:

وهذا من أكثر الأسباب الصادة عن الحق في القديم والحديث، لأن النفوس مجبولة على الخضوع للعلامة الظاهرة القوية، كعصا موسى وناقاة صالح، وأما القبول بالأدلة المسموعة فلا يقبله إلا من رزقه الله أذنا واعية وقلبا حيا، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٣٤).

وقد عد الرازي ذلك من شبهات منكري النبوة الخمسة التي ذكرت في سورة يونس (٣٥)، ونجد أن القرآن إذا ذكر سؤال أهل مكة عن الآيات كان ذلك على وجهين، الأول: أن يسألوه آية مطلقة دون تحديد كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦)، وقوله

(٣٣) سورة إبراهيم: ١٠.

(٣٤) سورة ق: ٣٧.

(٣٥) مفاتيح الغيب للرازي (٢١٨/١٧).

(٣٦) سورة الأنعام: ٣٧.

عز وجل: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٣٧).

والثاني: أن يطلبوا شيئاً معيناً كقوله سبحانه في الإسراء: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَافَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفِيِّكَ حَتَّىٰ تُنزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نُفَرِّقُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾^(٣٨). ثم سألوهم أن يأتيتهم بالملائكة فقالوا: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٣٩) وهذا حال الأمم السابقة مع رسلها، فقد قال الله عنهم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾^(٤٠). وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بُرْهَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٤١). ونجد في القرآن أن الله إذا ذكر مطالبة الكفار بالآيات الحسية بين بعدها أحد أمرين، الأول: يبين أن آيات القرآن أعظم دلالة على الحق من الآيات الحسية كما قال في الأعراف: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا

^(٣٧) سورة الأعراف: ٢٠٣.

^(٣٨) سورة الإسراء: ٩٠-٩٣.

^(٣٩) سورة الحجر: ٧.

^(٤٠) سورة البقرة: ٥٥.

^(٤١) سورة آل عمران: ١٨٣.

فُرِيَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٢﴾، وقال في العنكبوت: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٍ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٤٣﴾ .

والثاني: أن يبين صفات الله كعلمه بالغيب مثل قوله: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٤٤﴾، وقوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ * اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْتَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٤٥﴾، ووجه ذكر علم الله بعد سؤال الآيات أن أهل مكة سألوا نبيهم سؤال مقتدر متصرف في هذه الآيات الحسية فرد عليهم بأن علم هذه الآيات إلى الله، كما قال هود لقومه حين سأله آية: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَنِ الْهَيْبَةِ فَاْتِنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا بِجَهْلُونَ ﴿٤٦﴾، وقول شعيب لأهل مدين حين قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٤٧﴾ .

(٤٢) سورة الأعراف: ٢٠٣/٢٠٤ .

(٤٣) سورة العنكبوت: ٥٠/٥١ .

(٤٤) سورة يونس: ٢٠ .

(٤٥) سورة الرعد: ٧/٩ .

(٤٦) سورة الأحقاف: ٢٢/٢٣ .

(٤٧) سورة الشعراء: ١٨٧/١٨٨ .

ومن صفات الله علمه بمن يصلح للهداية والضلالة كقوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ﴾. (٤٨)
ومما يتبع سؤلهم الآيات الظاهرات مطالبتهم نبيهم بالعذاب والوعيد: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٤٩) وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٥٠).

المطلب الثاني: كون الأنبياء بشرا، كان الكفار يعارضون أنبياءهم بطرق شتى، ومن ذلك أنهم اعترضوا على بشريتهم فقالوا: كيف يكون البشر رسلا، فرد الله عليهم فقال: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا * قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمَشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ (٥١). وهذا السبب قديم قدم الأنبياء، كما قال نوح لقومه: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٥٢)، وقال هود لقومه: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَادُّكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٥٣).

(٤٨) سورة الرعد: ٢٧.

(٤٩) سورة الأنفال: ٣٢.

(٥٠) سورة يونس: ٤٨.

(٥١) سورة الإسراء: ٩٤/٩٥.

(٥٢) سورة الأعراف: ٦٣.

(٥٣) سورة الأعراف: ٦٩.

يقول الطاهر بن عاشور في تفسيره: " العلة الأصلية التي تبعث على الجحود في جميع الأمم وهي توهمهم استحالة أن يبعث الله للناس برسالة بشرا مثلهم. فذلك التوهم هو مثار ما يأتونه من المعاذير " (٥٤).

المطلب الثالث: اتباع الفقراء للحق، كان أهل مكة يطعنون بالنبوة لمسابقة الفقراء غيرهم في متابعة الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكُتُ قَدِيمٌ﴾ (٥٥). وحين استحيى الكفار وانصرفوا عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم لوجود الفقراء معه أنزل الله سبحانه قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٦)، وأنزل قوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٥٧). وقد جاء في نزول هذه الآية وآية الأنعام ما يدل على هذا السبب، كما أخرجه ابن ماجه في سننه عن خباب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٨)، قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري، فوجدوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع صهيب وبلال وعمار وخباب،

(٥٤) تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٢١١/١٥).

(٥٥) سورة الأحقاف: ١١.

(٥٦) سورة النعام: ٥٢.

(٥٧) سورة الكهف: ٢٨.

(٥٨) سورة الأنعام: ٥٢.

قاعدًا في ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حول النبي - صلى الله عليه وسلم - حقروهم، فأتوه فخلوا به وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلسًا، تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترانا العرب مع هذه الأعباد، فنزل جبريل عليه السلام فقال: (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) الحديث^(٥٩). وهذا من أسباب إعراض الأغنياء وأهل الوجاهة، فإن قلوبهم تأبى المشاركة مع الفقراء في شيء من طعام أو لباس أو سكن، فلما رأوا الفقراء اتبعوا الأنبياء استكبروا عن مشاركتهم في ذلك ورأوا أن ذلك ينقص من قدرهم ومكانتهم، وقد ذكر الله هذا السبب في قصة نوح عليه السلام، فقال عنهم: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدَائِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ تَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾^(٦٠) وفي الشعراء: ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ﴾^(٦١).

بل إن الكبر قد ذهب بالكفار مبلغًا بعيدًا حين احتكروا الخير وحسبوا أنه لا يتعداهم إلى غيرهم من الفقراء، فنطقوا بالعجب، ونادوا بأعلى صوتهم لو كان الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم خيرًا لا تبعناه، ولكن حين اختص بهذا الخير هؤلاء الفقراء فإن ذلك برهان على انتفاء الخيرية منه، يقول سبحانه عن أهل مكة ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ فَدِيمٌ﴾^(٦٢) يقول ابن كثير في تفسيره: " وما ذاك إلا لأنهم عند

^(٥٩) أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الزهد، باب مجالسة الفقراء، رقم الحديث ٤١٢٧.

^(٦٠) سورة هود: ٢٧.

^(٦١) سورة الشعراء: ١١١.

^(٦٢) سورة الأحقاف: ١١.

أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية، وقد غلطوا في ذلك غلطا فاحشا، وأخطعوا خطأ بينا، كما قال تعالى: (وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا) ^(٦٣) أي: يتعجبون: كيف اهتدى هؤلاء دوننا ^(٦٤).

المطلب الرابع: ذهاب الرئاسة والمكانة والمال، كان أحبار أهل الكتاب يعلمون التوراة والإنجيل ويعلمون الناس إذا رغبوا، وكانت لهم مكانة بسبب ذلك، فإذا أسلموا واتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم ذهبت تلك المكانة والمنزلة بين الناس، وكذلك أهل مكة كانت لهم منزلة دينية بين العرب، قال الثعالبي: " كان يقال لقريش في الجاهلية: أهل الله، لما تميّزوا به عن سائر العرب من المحاسن والمكارم، والفضائل والخصائص، التي هي أكثر من أن تحصى، فمنها: مجاورتهم بيت الله تعالى، وإيثارهم سكن حرمه على جميع بلاد الله، وصبرهم على لأواء مكة وشدتها، وحشونة العيش بها.

ومنها: ما تفردوا به من الإيلاف والوفادة والرفادة والسقاية والرياسة واللواء والندوة. ومنها: كونهم على إرث من دين أبويهم إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام)، ومنها: كونهم قبلة العرب وموضع الحج الأكبر، ومنها: ثبات وجودهم وجزيل عطاياهم، واحتمالهم المؤن الغلاظ في أموالهم المكتسبة من التجارة...، وأعجب من ذلك أنهم من بين جميع العرب دانوا بالتحمس والتشدد في الدين فتركوا الغزو كراهة للسي واستحلال الأموال... ^(٦٥).

^(٦٣) سورة الأنعام: ٥٣

^(٦٤) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٧٨).

^(٦٥) ثمار القلوب (١٠٠١).

وكانت الأصنام توضع فوق الكعبة بإذن قريش، وكانت العرب تحج بحج أهل مكة، وكان بعض الأعراب إذا طافوا بالبيت يلعبون ثيابهم بأمر قريش، إلا من أعاره قرشي ثيابه^(٦٦)، وكانت قريش تنسيء الأشهر الحرم فتتبعهم العرب^(٦٧)، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُجْلُونَهُ عَامًا وَجُرْمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(٦٨)، وترى أكثر العرب في إسلامهم انتظارا لإسلام قريش، فلما أسلمت قريش في فتح مكة جاءت الوفود من العرب.

وهذه المكانة التي تبوأها قريش ستذهب بإسلامهم وسيكونون تابعين للنبي صلى الله عليه وسلم في كل شيء، وهذا السبب هو الذي جعل أحبار أهل الكتاب يحرفون كتابهم ليوافق أهواء الناس، ولئلا ينصرف الناس عن اتباعهم، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٦٩) وينقل الشيخ رشيد رضا عن شيخه محمد عبده في هذه الآية قوله: "ومنه ما كان رؤساء اليهود يلاحظونه زمن التنزيل وهو حفظ ما بيدهم الذي يتوهمون أنه يفوتهم بترك ما هم عليه من التقاليد واتباع ما أنزل الله بدلا منها"^(٧٠).

^(٦٦) انظر حديث ابن عباس في ذلك وقد أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التفسير، باب في قوله تعالى: خذوا

زينتكم عند كل مسجد، رقم الحديث ٣٠٢٨.

^(٦٧) انظر تفسير ابن عباس لذلك في تفسير ابن أبي حاتم (١٧٩٣/٦).

^(٦٨) سورة التوبة: ٣٧.

^(٦٩) سورة البقرة: ١٧٤.

^(٧٠) تفسير المنار لرشيد رضا (٨٣/٢).

المطلب الخامس: الخوف من مخالفة الناس، لولا الملامة ساد الناس كلهم^(٧١)، ولولا كلام الناس لتشجع أكثر الخلق على فعل ما يحبون، وقد يرغب العبد أن يفعل شيئاً، فيجد أن الناس يكرهون هذا الفعل فيستحسر وينقطع.

وكان المشركون يراعون كلام العرب فيقولون ماذا ستقول العرب عنا إذا أسلمنا وخالفنا دين آبائنا وأجدادنا وماذا سيفعلون بنا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٧٢) عن ابن عباس، أن الحارث بن نوفل، الذي قال: ﴿إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ وزعموا أنهم قالوا: قد علمنا أنك رسول الله، ولكننا نخاف أن نتخطف من أرضنا^(٧٣)، وكان المنافقون يقولون نخشى من دائرة السوء، فأنزل الله فيهم: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصِيبَهُمْ أَوْ يَأسُرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾^(٧٤)، قال الشنقيطي في تفسيره: "ذكر في هذه الآية الكريمة أن الذين في قلوبهم مرض، وهم المنافقون، يعتذرون عن موالاتة الكفار من اليهود بأنهم يخشون أن تدور عليهم الدوائر، أي دول الدهر الدائرة من قوم إلى قوم"^(٧٥). وكان بعض الأعراب يخشون من مخالفة الناس فأنزل الله سبحانه: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمِ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾

(٧١) الأمثال السائرة من شعر المتنبي (٦٤/١).

(٧٢) سورة القصص: ٥٧.

(٧٣) تفسير الطبري (٦٠١/١٩).

(٧٤) سورة المائدة: ٥٢.

(٧٥) أضواء البيان للشنقيطي (٤١٤/١).

وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾. وحين وقع الخوف في قلوب بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من مواجهة المشركين^(٧٧) نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٧٨).

وحيث حرم الله دخول المشركين مكة خشى بعض الصحابة من الفقر لأن بعض المشركين تجار، فأنزل الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٧٩)، عن ابن عباس قال: " لما نفى الله المشركين عن المسجد الحرام، ألقى الشيطان في قلوب المؤمنين الحزن، قال: من أين تأكلون، وقد نفى المشركون وانقطعت عنهم العير فقال الله: ﴿وإن خفتهم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء﴾ فأمرهم بقتال أهل الكتاب، وأغناهم من فضله"^(٨٠).

المطلب السادس: اتباع الهوى والرغبة في الدنيا، وهذا مبعث النفوس لمخالفة الحق وصارف الخلق عن الحق، لأن الهوى إذا استحکم من القلب أعماه، وشغله عن رؤية ما ينفعه، ورغبه بالدنيا وزهده في الآخرة، ومنعه من اتباع الأنبياء، لأن اتباع الأنبياء فيه مخالفة للهوى، وكانت بنو إسرائيل ينصرفون عن الحق لاتباعهم أهواءهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ

^(٧٦) انظر تفسير الطبري (٤٣٢/١٤) وقد عددهم بعض المفسرين مثل عبد الرحمن بن زيد من مناف الأعراب.

^(٧٧) تفسير ابن أبي حاتم (٨٢١/٣)

^(٧٨) سورة آل عمران: ١٧٥.

^(٧٩) سورة التوبة: ٢٨.

^(٨٠) تفسير الطبري (١٩٣/١٤).

اسْتَكْبَرْتُمْ فَعَرِيفًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيفًا تَقْتُلُونَ ﴿٨١﴾ وبين الشيخ الطاهر بن عاشور أثر الهوى في تفسير هذه الآية فيقول: " والمراد به ما تميل إليه أنفسهم من الانخلاع عن القيود الشرعية والانغماس في أنواع الملهيات والتصميم على العقائد الضالة " (٨٢).

ومن اتبع هواه ورغب في الدنيا رأى نفسه كبيرا على الحق فاحتقره ولم يتبعه، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (٨٣). بل إن الهوى والرغبة بالدنيا يقبحان الحق ويزينان الباطل، ولو عرف العبد الحق وهو راغب بالدنيا فإنه سينسلخ عن الحق ولو بعد حين، كما قال سبحانه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٨٤).

المبحث الثالث

أسباب إعراض المشركين عن الإيمان بالمعاد

المطلب الأول: استبعاد الإعادة، واستبعاد الشيء ناتج عن الجهل به، فمن جهل شيئا خارجا عن عاداته ومعهوده استبعده، ووجه استبعادهم ذلك أنهم لا يجدون أحدا ممن مات قد رجع للدنيا، وقد بين الله استبعادهم في مواضع كقوله تعالى:

(٨١) سورة البقرة: ٨٧.

(٨٢) تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (١/٥٩٨).

(٨٣) سورة الأعراف: ١٤٦.

(٨٤) سورة الأعراف: ١٧٦.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾^(٨٥)، وهذا الاستفهام يفيد الإنكار، وقوله سبحانه: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾^(٨٦) ومنشأ ضلالهم من قياس قدرة الخالق على قدرة المخلوق^(٨٧)، وكان جواب القرآن على هذه الشبهة بالقياس على البدء، فمن قدر على بدء الإنسان فهو أقدر على الإعادة، قال سبحانه: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾^(٨٨)، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾^(٨٩)، ومن قدر على خلق السموات والأرض فهو أقدر على إعادة الإنسان، وقال سبحانه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ﴾، ومن قدر على إخراج الشيء من ضده وهو إعطاء النار من الشجر الأخضر فهو قادر على إعطاء الحياة من الموت، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾^(٩٠) وإذا كان خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، فإعادتهم بعد مماتهم أيسر، وقد تكرر هذا الجواب في سورة ق فقال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾^(٩١).

^(٨٥) سورة يس: ٧٨.

^(٨٦) سورة ق: ٣.

^(٨٧) تفسير الكرم الرحمن للسعدي (١/ ٦٩٩).

^(٨٨) سورة يس: ٧٩.

^(٨٩) سورة ق: ١٥.

^(٩٠) سورة يس: ٨١.

^(٩١) سورة ق: ٦.

المطلب الثاني: المطالبة بإحياء آبائهم الموتى، حين عجز الكفار عن الرد على الحجج والبيانات الدالة على البعث والنشور لجؤوا للمباهمة والمكابرة والخروج عن دائرة البحث^(٩٢) ليستروا عجزهم، وتكون لهم الكلمة الأخيرة في المناظرة، ظنا منهم أن الغلبة تكون لمن أسكت خصمه، وليموهوا على أتباعهم حذرا من تأثرهم بدعاية الحق، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٩٣).

الخاتمة: نخلص من هذا البحث إلى النتائج الآتية:

- (١) أسباب امتناع المشركين عن اتباع المرسلين إما أسباب تعود لعدم إيمانهم بالألوهية أو النبوة أو المعاد.
- (٢) الأسباب المتعلقة بتوحيد الله هي الجهل بالله، والعلم الفاسد، وتقليد الآباء.
- (٣) الأسباب المتعلقة بالنبوة هي عدم مجيء الآيات الحسية، وكون الأنبياء بشرا، واتباع الفقراء للحق، والخوف من ذهاب المكانة والرئاسة والمال، واتباع الهوى.
- (٤) الأسباب المتعلقة بالمعاد تعود لاستبعاد الإعادة والمطالبة بإحياء آبائهم.

^(٩٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٢٥/٣٦٤).

^(٩٣) سورة الجاثية: ٢٥/٢٦.

مراجع البحث:

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
- الأمثال السائرة من شعر المتنبي، لإسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، المشهور بالصاحب بن عباد، مكتبة النهضة، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م.
- البحر المحيط في أصول الفقه، لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، دار الكتبي، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، الزبيدي.
- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤ هـ .
- تفسير ابن أبي حاتم، المحقق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة - ١٤١٩ هـ.
- تفسير الطبري = جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير، أبو جعفر، تحقيق أحمد شاك، مؤسسة الرسالة.
- تفسير الكريم الرحمن لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- تفسير المنار لمحمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م.
- ثمار القلوب لعبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، دار المعارف - القاهرة.

- سنن الترمذي لمحمد بن عيسى الترمذي، أبو عيسى تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ١٩٩٨ م.
- سنن ابن ماجه، لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.
- صحيح البخاري = الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، لمحمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، دار طوق النجاة.
- صحيح مسلم = المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري دار صادر - بيروت، الطبعة الثالثة - ١٤١٤ هـ.
- المروزي في تعظيم قدر الصلاة لأبي عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج، مكتبة الدار - المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦.
- مفاتيح الغيب للرازي لأبي عبد الله محمد بن عمر الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثالثة - ١٤٢٠ هـ.
- المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت.